

الفضل السابع

القاهرة.. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن أفريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطلع القرن التاسع عشر عاصمة قطر، أيًا كان هو، فإنه متقارب من الدولة الحديثة. وليس من قبيل الإطراء خلعنا هذا الوصف عليها، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب. يكفي القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيًا ومستشاراً و ٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و ٦٥ مستشفى بها ١٣,٠٣٢ سريراً وما يزيد عن ١,١٠٠ من شرطة المرور، ليقال إن هذا كله لا يعكس أنها عاصمة فحسب، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة،

وهى أيضاً فريدة فى أنها تمثل مجتمعاً شرقياً فى صراع دائم
مثمر مع الغرب، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول
(وهى مدينة لا بد أن يقال عنها إنها غربية فهى مقامة فى
أوروبا) فإن القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر
قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب،
فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة إلى بلد صغير فى
قلب الأناضول، ولا أحد فى مصر (اللهم إلا فى شهر
أغسطس حين تصبح الإسكندرية بمثابة العاصمة الثانية)
يتبادر إلى ذهنه التخلي عن القاهرة.

وعلى مدى قرن ونصف - ما بين نابليون وجمال
عبد الناصر - تولت حكم مصر سلالة أجنبية واحدة بلغ
من تتابع توارثها أن أصبح يطلق عليها - تفخياً لها -
كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفى التاريخ للعهد
الفرعونى - اسم «الأسرة الحاكمة» ومنشئ خطوط هذه
السلالة رجل مسلم من مدينة قولة فى مقدونيا بشمال
اليونان، وكذلك إلى مقدونيا ينتسب منشئ الإسكندرية
العاصمة المتألثة لمصر البطالسة، وبعد أن انحدر حالها

وانكمشت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف، أعاد إليها محمد علي - المنتسب إلى مقدونيا أيضًا - ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة لملكه. وكان حين مجيئه إلى مصر من أتباع السلطان العثماني، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون، ولكنه قلب تبعيته إلى نظام حكم مبتدع فريد إذ أصبح يخص نابوليون بإعجابه الشديد، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الأقاليم المتخلفة في تحطيم الممالك في مجزرة وحشية انقسم امتدادها إلى مرحلتين، الأولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امبابة (التي اندمجت في القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالأمراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون، وفر من نجا من المعركة إلى صعيد مصر والسودان، انتظارًا - هكذا ظنوا - لعودتهم إلى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابوليون إلى باريس. ولكن محمد علي - وهو في بعض الاعتبار آخر الممالك وأنجحهم - دعا بقيتهم إلى حفل في القلعة وفتك بهم هناك. ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هذه

المذبحة، إنه الممر الضيق المؤدى من القلعة إلى باب العزب. وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التي هام بها المصورون في القرن التاسع عشر فرسموه، وفقاً لأسطورة شائعة - وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاوياً إلى الأرض. ولكن الحقيقة هي على خلاف الأسطورة، وإن كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل. واستمر القتل أيضاً في الممالك الذين كانوا متفرقين في أرجاء مصر.. فمن هم هؤلاء الممالك؟

إنهم في الأصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم. وكما حدث في الإمبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الإمبراطور إلى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله، فإن هذا الحرس من الممالك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر. وقد جاء هؤلاء الممالك من الأطراف الشمالية الشرقية لدار الإسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس، وأحياناً بالتقى والورع، وأحياناً بالانتهازية الكلبية، ولكن محال

وصفهم بأنهم مصريون. ورأس الماليك يصبح هو السلطان، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب الى ابن، ولكن كان من المحبب لهم في المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكًا أثيرا عنده، وكان هذا المملوك إما يقتل سيده أو يتأمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره. ويمكن القول بأن نظام الماليك يرجع مبدأه إلى عهد صلاح الدين وهو كردى من أبناء القرن الثانى عشر، فإنه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه ما يكون بنظام الحكم الاقطاعى فى الغرب، ولو أن فرق الجنس بين الماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قد جعل هؤلاء الماليك أقل من بارونات القرون الوسطى فى فرنسا وانجلترا اهتماماً بالحقوق الديمقراطية، وإن أخطأنا عمداً فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها. ولما انهزمت مصر أمام الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باى آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة الماليك قد دالت، على يد غزاة لا يقلون عتوًّا عن التيودور فى غزوهم لانجلترا، ولكن أعباء هذه الإمبراطورية التى اتسعت

فجأة ثقلت على الأتراك فرأوا من الأصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم إلى نهاية القرن الثامن عشر وإن بقي لموظف تركى سيادة اسمية عليها.

ومن تركة المماليك التى أورثوها للقاهرة شيثان: هذه العيون الزرق والخضر فى بعض الوجوه السمرة، وهذا الحشد من الصروح الفخمة: مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبابها التى تتميز بها مقامة فوق قبورهم، كأننا انتقل إليهم بالعدوى، من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الأبدية، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ إلى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التى انتقلت من يدهم إلى يد نابليون وإلى يد مريده المقدونى لم تكن إلا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم. ويرجع الفضل فى اتساع هذه المدينة الى أسرة محمد على، وإن تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار إلا بعد انقضاء عهد المماليك.

ولم يشعر محمد على في قرارة نفسه أنه مصرى قط، ولو أن ابنه إبراهيم - هذا الجندى الصارم - كان يحس أنه قريب إلى أبناء العرب سمر الوجوه شأنه في ذلك شأن لورنس إذا راعينا واجب تبديل زمن بزمان. وكان محمد على يتكلم التركية لا العربية، ويعد نفسه عثمانياً لا مصرياً، ولا حتى من مقدونيا. وكان له - كما للملك عبد العزيز آل سعود - وفرة من الأولاد، ولكنه كان في نفس الوقت من المعجيين بالمدينة الغربية الحديثة وأراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الآلات البخارية وبنى الفنارات. والطابع الذى خلفه على مدينة القاهرة يستمد إشعاعه من القلعة، إذ شيد فيها قصره - قصر الجوهرة - بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح الممالك الذين ذاقوا الموت ذبحاً. وبجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره، وهذا المسجد لا يعد في نظر عشاق العمارة الإسلامية في القاهرة من أفضل نماذجها، شأن دار الأوبرا في باريس بين مثيلاتها. وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فإنه - في عاصمة مصر - يطفئ على أفقها الشرقى.

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة
المحمودية، وبني القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها
- كالشأن في أغلب منجزاته - كانت مهتزة الدعائم، فلم
يتم لها رسوخ إلا في التسعينات من القرن الماضى. وفي
قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد،
كما نجده قاعدًا في الصورة القلمية التى رسمها له
روبرت كيرزون. قال:

«وجدنا الباشا حين لقيته شيخًا عفيًا متين البنيان،
عريض الكتفين، عريض صفحة الوجه، واسع انفتاح
المنخرين، تضى عليه نظرتة الحادة الوثابة، هيئة أسد
أغبر هرم. تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى إمكان
مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس. وكان هذا
المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ. ولكن الحادثة التى
سجلت هذا اللقاء بقوة فى ذاكرتى والتى دهشت لها لأنها
تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن فى
ذاتها إلا حادثة هينة، فقد رأيت الباشا يطلب منديله
فأخذ يبحث عنه فيما حوله، ثم ينقب فى جيوبه، فلم

يجده. وكان أثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته
وحيرته بهتافات مختلفة، استجاب لها آخر الأمر خادم
سعى إليه من أقصى الحجرة وقال له «ابحث عنه في
جيبك الآخر» فأجابه الباشا «فعلت فلم أجد فيه
منديل» رد عليه الخادم «إذن عد إلى البحث عنه في
جيبك الأول» فلما أجابه الباشا «ليس عندي منديل» أو
بكلام من هذا القبيل، كان الرد السريع الذى أتى إليه
من الخادم «بل عندك منديل» وتكرر القول والرد
«ليس عندي منديل» - «بل عندك منديل» وانتهى
الأمر بأن تقدم هذا الخادم إلى الباشا وأخذ ينقب في
جيبي سترته دون أن يجد المنديل، فأخذت يده تدور
حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف
الشال الذى يتلفع به ولكن بلا جدوى، حينئذ أمسك
الخادم بسيده مولاه وأماله إلى اليمين فوق الأريكة ونظر
تحتة ليرى ما إذا كان قد قعد على منديله، ثم عدله وأماله
من جديد إلى اليسار، وظل الباشا طوال هذه المناورة
العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام، ثم
دس الخادم ساعده إلى الكوع في أحد جيوب سرواله

الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة، ولكنه لم يجد المنديل، فانتقل ساعده إلى الجيب الآخر ومدّه إلى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود، وفي حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة إلى يد الباشا ثم تراجع إلى الطرف القصي من الحجرة حيث كان».

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ما كان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التي اغتصبها، وكذلك ونحن نستمع إلى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة. قد يكون محمد علي نهارًا للفرص، يمضي الى غاياته بلا رحمة، وقد تكون اصلاحاته سابقة لأوانها، ضحضاة لأنها انبعثت من دوافع باطلة - إذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية يقيمها لشخص - ولكن رجلاً له مثل هذا المسلك السمع وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره، ومثل هذه الخلال لا تزال إلى اليوم في جميع البلاد العربية هي التي تمهد

لحكامها طريق النجاح.

لم يرث أحد من ابنائه عبقريته وانتباهه للشرق وقد وجد اسمه اسوا تخليد له في القاهرة «فإن اسماعيل هو الذى أطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسى، فجاء أشد شوارع العاصمة دمامة واجترأ فإنه هتك احشاء حى من أجل أحياء القاهرة، وهدم قصورًا وأزال حدائق وقوض جانبًا من مسجد عتيق لا لشيء إلا لكى يسلم للشارع تمام امتداده على خط مستقيم، وهذا حرص سخيف عديم الذوق» هكذا قال ستانلى لين بول. ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من إسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيهًا بشارع ريفولى فى باريس. ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل أصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكى، فاختفى أكثرها وأصبح جريحًا متناثرًا، وأصبح - باسمه الجديد شارع القلعة - من أقبح الشوارع فى مدينة جميلة.

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعًا لخضوعهم لحكم سلالة

محمد علي. كان مطلب ثأرهم عند قصورهم، فقصر عابدين - وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه - يطل على ميدان كبير. هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مشير مع الضابط عرابي - مثل عبدالناصر في الثمانينات من القرن الماضي. أصبح الآن يسمى بميدان الجمهورية وينقلب إلى سرادق مكبٍ مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة إلى الخطب احتفالاً بعيد الثورة في شهر يوليو من كل عام، أما القصر ذاته فقسم منه تشغله إحدى الوزارات «وزارة الإصلاح الزراعي» وقسم آخر يحتله ناد للشباب، وقسم أفرد ليكون متحفاً. وقد بيع أغلب أثاثه الفاخر، وما بقي منه ينم عن ذوق اسماعيل الذي كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات إسماعيل مرتديات ملابس عقيات طبقة السادة في أكسفورد، وبقيت الأدوية في الحمام الملكي كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش، وبقي الميزان كذلك، ذكرى حزينة لبدن يود أن يزوى كما ذوت سمعة صاحبه. أما القصر

الذى احتفل فيه اسماعيل بالامبراطورة الفرنسية
ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لأسرة مسيحية
من الصعيد، هى أسرة لطف الله، وبقي القصر بقدر
ما كما كان، وأن أقيمت على أرضه شاليهات مترفة.

وقصر الامير محمد على (ولى العهد الى أن رزق بولد
من زوجته الثانية ناريمان صادق قبل خلعه بقليل) قائم
الى اليوم بجزيرة الروضة، من وراء أسواره العريضة
دروب يحفها نبات الصبار أو تظللها أشجار البانيان،
لا ينساها من يجوس خلالها، تصلح أن تكون مسرحا
لفيلم سيريالى أن صنعت هذه الافلام فى مصر. وبالقصر
مجموعة ضخمة من صور فوتوغرافية للملوك الدول
ورؤسائها عليها توقيع أصحابها، وفقا للمراسم. وينقلب
طابع القصر المستلهم من ذوق دمشق الى طابع عهد
ادوارد فى إنجلترا إذا انتقلنا إلى الحمام ورأينا من خزفه
زخارف على هيئة أزهار. أقام الأمير على أرض قصره
متحفه وهو خير مكان تستعرض فيه السجاد الشرقى،
ولوحات الملوك ورؤساء الدول، والمصاحف المزخرفة،
وأشياء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقى مطلق السلطان.

وهذه الفقرة التي كتبها لها صدقها، ولكن السرعة التي يتصف بها تغيير الاحوال في الشرق الجديد ما لبثت أن جعلت كلامى محمولا على الماضي، فقد علقت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن أنه هو أيضا أصبح فندقا باسم «عمر الخيام المنيل» وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد في الإمكان صنع فيلم سيرىالى كالذى تحدثت عنه فإن نبات الصبار قد اذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا - أنا وانت - لم نهضم بعد نصيبنا من متعته. وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة.

ولن تجد في القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه، وهذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم. فإذا كان هذا التراث يعد في نظر الانجليز في بلادهم منحدرًا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة السيادة، فإنه في نظر المصريين ينحدر عن عصر إسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة. أما ابراهيم فلأنه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب

من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له أمام دار الأوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده، على حين أن سليمان باشا، هذا الفرنسي الذي اعتنق الاسلام وأصبح معروفا - إلى جانب ما يعرف عنه - بأنه أيضا جد نازلى أم فاروق فقد استمر تمثاله - الذى يمثله بسر اويله الواسعة وبطربوشه - قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان القريب من محل جروبي حيث كان يعطى بعض ظهره للسيدات البدينات المندفعات صوب الشيكولاته، ومن حل محله ؟ تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك مصر.

والذين يهيم ذوقهم بعطر الماضى الحديث هيهات أن يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك الحديدية بالقاهرة، ما دام باقيا. أنه منزو بالقرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور الفوتوغرافية، تشهد باستباق مصر لدخول عصر السكك الحديدية فى وقت مبكر. وقد وصفت لك من سابق محمد على وهو يباحث كيرزون فى مد خط حديدى، وقد تم مد خط بين القاهرة والاسكندرية سنة

١٨٥٦. ويحتفظ المتحف في أحد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى «بالكشك» الذى كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذى أعطى الإذن بشق قناة السويس، أنه بين القطارات عديل سيارة رولزرويس بين السيارات وهو من انتاج مصانع ستيفنسون.. أول المصانع فى إنشاء السكك الحديدية إطلاقا - وتم تسليمه سنة ١٨٢٦. وقد طلى القطار من الخارج بألوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال البوهيمى إرضاء للذوق الشرقى، وفرش داخله بالطنافس فامتزجت مع الآلات المللمعة امتزاجا غريبا. وكان سعيد باشا - الذى كان بين أفراد أسرته الذين لا تنقصهم البدانة أكثرهم امتلاء - مشهورا بأنه كان يقود هذه القاطرة بنفسه فى زيارته لاقطاعات أقاربه وأصدقائه.

أما عمران القاهرة فالفضل الأكبر فيه راجع إلى إسماعيل. تدين له إحيائها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الإيطالى، وأحيانا بنصيبها من رشاقته أيضا. من أجل إسماعيل جرى إطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذى كان فيما مضى تشينه الثكنات البريطانية

فتحول إلى منظر فخم بإقامة فندق الهيلتون مكانها. ولقد أقيم في سرّة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قممتها تمثال إسماعيل وبذلته الرسمية، وتبدل اسم الميدان من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان التحرير.

أما دار الأوبرا فهي إلى اليوم درة منجزات إسماعيل، بنيت على عجل من الخشب والجص لتلحق إفتتاح قناة السويس، ولكن تعجل الحاكم الشرقي لم يجد مجارة له عند الملحن المكلف بإعداد أوبرا عايدة لليلة الافتتاح، فلم يستطع فردى إتمامها، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو». وقد حضرت يوم ٢٨ إبريل سنة ١٨٦٤ أداءً بديعاً لأوبرا «لاترافياتا» مترجمة إلى العربية فقدم إبراهيم رفعت نصّاً بلغ القمة في قابليته للغناء، ولكن السيدات اللاتي استضافتهن فيوليتا في صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر إسماعيل الذي لا يزال المحرف اللاتيني الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الأوبرا.